الفصل الثامن عشر

قلت: نعم يا سيدتي، قد أنقذت خديجة من شرٍّ عظيم، ولكنك ترين معي أن لا مقام لي في هذه الدار منذ الآن! فكل شيء يأمرني بالتحوُّل عنها. قالت وقد أحسست في صوتها أنها مشغولة البال منصرفة النفس عما يمكن أن أبسط لها من حديث: وما ذاك؟ قلت مقتصدةً متعجلةً مضمرةً أني إنما أتحدث لأعتذر عما سآتي من الأمر: لم أتعود يا سيدتي أن أخفي على خديجة شيئًا أو أكتم من دونها سرًّا، وما ينبغي بل ما أستطيع أن أبقى معها مستأثرة بعلم ما أعلم، طاوية عنها مسعاي عندك، وستعلم خديجة من غير شك أن هذا الأمر الذي بُدئ فيه قد أهمل وعُدل عنه، وسيكون له في نفسها أثرٌ حاد، ما أشك في ذلك، ولست آمن نفسي حين أحاول ما يجب عليَّ من تسليتها وتعزيتها أن أبوح لها ببعض الحديث، والخير كل الخير في أن أتعجل الرحيل، وما دام الله قد قضى عليَّ الشقاء فلا بد من الإذعان لما قضى الله، قالت: وأين تريدين أن تذهبي؟ قلت: لا أدري! وإنما يجب أن أذهب أولًا، فأما إلى أين فشيء سأتبينه بعد ذلك …!

ولم يرتفع ضحى الغد حتى كنت بعيدة عن دار المأمور قريبة منها مع ذلك، ألحظ من كثب ما يكون بين هاتين الأسرتين اللتين لم تتصل بينهما الأسباب إلا لتنقطع، ولم تنشأ بينهما المودة إلا لتستحيل إلى عداء أو شيء يشبه العداء، ولم أجد في ذلك مشقة ولم أتكلف فيه عناءً، وإنما تحولت من دار إلى دار، وقضيت يومًا أو بعض يوم عند هذه المرأة التي تحدثت عنها في أول القصة، عند زنوبة تلك التي عرفتها في بيت العمدة وقصصت من حديثها ما قصصت.

أقبلت عليها نحو الظهر، فألفيتها قائمة تكيل بعض ما تكيل من الحَب، وأمامها نسوة يشترين منها: هذه تشتري القمح، وهذه تشتري الذرة، وهذه تشتري الفول، هذه تشتري نقدًا، وهذه تشتري نسيئة، وزنوبة تحتكم في هذه وتلك صائحة مسرفة